ريحان القبور

يطالعنا يوم الوقفة ، من كل عام ، فى ضجة ما بعدها ضجة ، متجدد الشباب ، مشرق المحيا ، وقد نضا شملة السكون الخامل ، واستبدل بها لبوس الحيوية واليقظة .

ما إن يهل علينا ، مع النهار الوليد ، حتى نهتف من الأعماق متهللين لمقدمه ، وفق ما رسمه من شواغل ، وما سنه من نواميس .

وإنى أتمثله ، فى موكبه العظيم ، أميراً من هؤلاء الأمراء المستبدين ، انبعث يفرض علينا سلطانه فى إصرار وعناد .

وما أسرع أن ينتهب ما بأيدينا من المال ، فإذا المتاجر تستنزف قوانا فى مشتريات يعدها الأمير من لوازمه ، دون أن تأخذه بنا ذرة إشفاق .

والويل كل الويل لمن يعصى أمر الأمير أو يخرج عن طاعته ، فلا يعتم ، أن ينقلب اليوم البهيج ، مناحة ، يسكب فيها أهل المارق ، دموع الأسى والتذمر والإنكار .

مساكين هؤلاء المتزوجون .

أحمد الله ، أنى ظللت فى مأمن من المرأة ومنأى ،

أعيش ، كما تعيش القواقع فى تفرد ، أنعم فى مثابتى بأنس وصفاء .

مخبول هو من نعت النساء بصفات الضعف ، والدعة ، واللين .

إنهن ، أعزك الله ، نمرات متمردات ، دائمات الشكاية والتأفف ، همهن الأكبر فى يومهن الأطول أظفارهن .

تأخذهن ، إن اجتمعن أو تفردن ، عاكفات يقلمن الأظفار ، على رأس المحك الدقيق ، كما يشحذ السنان الدرب ، نصل السكين ، على حجر المسن العريض .

إنهن دائبات العناية بأظفارهن كالجندى الحصيف ، يظل عاكفاً على سلاحه ، يهيئه ليلبى به ، دعوة الداعى ، متى نفخ فى البوق ليعلن التطاعن والقتال .

وإنك إن تساءلت لماذا يؤثرن الخضاب الأحمر يطلين به شفاههن ، دون سواه من ألوان الزواق ، أجبنك فى براءة الذئب من دم ابن يعقوب ، والدهشة آخذة بهن ، إنه أداة زينة وتجمل . . . ليس إلا .

لا . . . لا تسمع لهن .

إنهن يموهن عليك .

وما اللون الأحمر إلا رمز لدم الفريسة المسفوح ، يندين به

شفاههن الظامئة إلى فتك وانتهاش .

مساكين هؤلاء الآباء .

يحسبون أنهم خالدون ، متى نجم لهم فى الحياة نبت .

يظنون ، وما أسخف ما يظنون ، أنهم فى أولادهم يعيشون ، وفى أولاد أولادهم ، هم مستمرون متجددون .

أليست هذه الفروع ، وتلك الجزئيات ، من عنصرهم الأصيل ، يتوارثون عنهم خصائصه المميزة ، جيلا بعد جيل .

هذا هو الخلود ، بحسب زعمهم ، عين الخلود .

يا لهم من جبناء رعاديد ، يتهيبون الموت وجلة قلوبهم ، فيخلقون هذا الوهم ، يتعزون به عن الموت ، ويقصون من دنياهم أشباح الفناء .

الموت حقيقة الحياة الكبرى ، والفناء طبيعة الوجود الراسخة ، أيها الجاهلون .

أحمد الله ، أنى ما زلت قوقعة ، لم ينبت من صلبى عود أى عود .

وقانا الله الذرية ، صالحة أو طالحة ، فليست هى إلا شر الحياة ، ووجهها المكفهر العبوس .

أليست هى بطوناً خاوية تطلب الشبع والامتلاء ؟

أليست هى أجساماً عارية تطلب الدفء والغطاء ؟

أليست هى ، بعد ذلك ، بحاجة إلى تربية وتنمية وإلى صقل وإعداد ؟

أليس كل هذا نفقات تلو نفقات تنوء بها الكواهل وتندى لها الجباه ؟

مساكين هؤلاء الآباء بما يرهقهم به يوم الوقفة من مطالب مسرفة تسلمهم إلى إعياء وضنك .

وعلى الرغم من حياة الاقتصاد التى أحياها ، وأنا فرد أعزل ، أرانى ، فى هذا اليوم ، وقد خرجت نفسى عن طاعتى ، كدابة حرون تأبى السير فى طريقها المرسوم .

لا غرو إذن ، أن ألقى ذلك اليوم ، يوم الوقفة ، متكرهاً ، أستنكر منه تطاوله على نقودى ، يبعثر فى السوق ، خلال ساعة ، ما اقتصدته فى شهور .

وتشهدنى القرافة ، مع الأصيل ، أسلك درويها العفراء ، محتضناً « فطائر الرحمة » يطويها دثار من ورق شفاف ، كأنها الوليد توسد حضن أمه ، مدرجاً فى لفائف من حرير ، ومن خلفى رجل بطين ، قصير القامة ، مكتنز العود ، يتقفى أثرى ، متلاحق الخطو ، وقد توج رأسه سفط الفاكهة والتمر ، على حين تدلت من يده طاقات الريحان ، يحسبه الناظر إليه ،

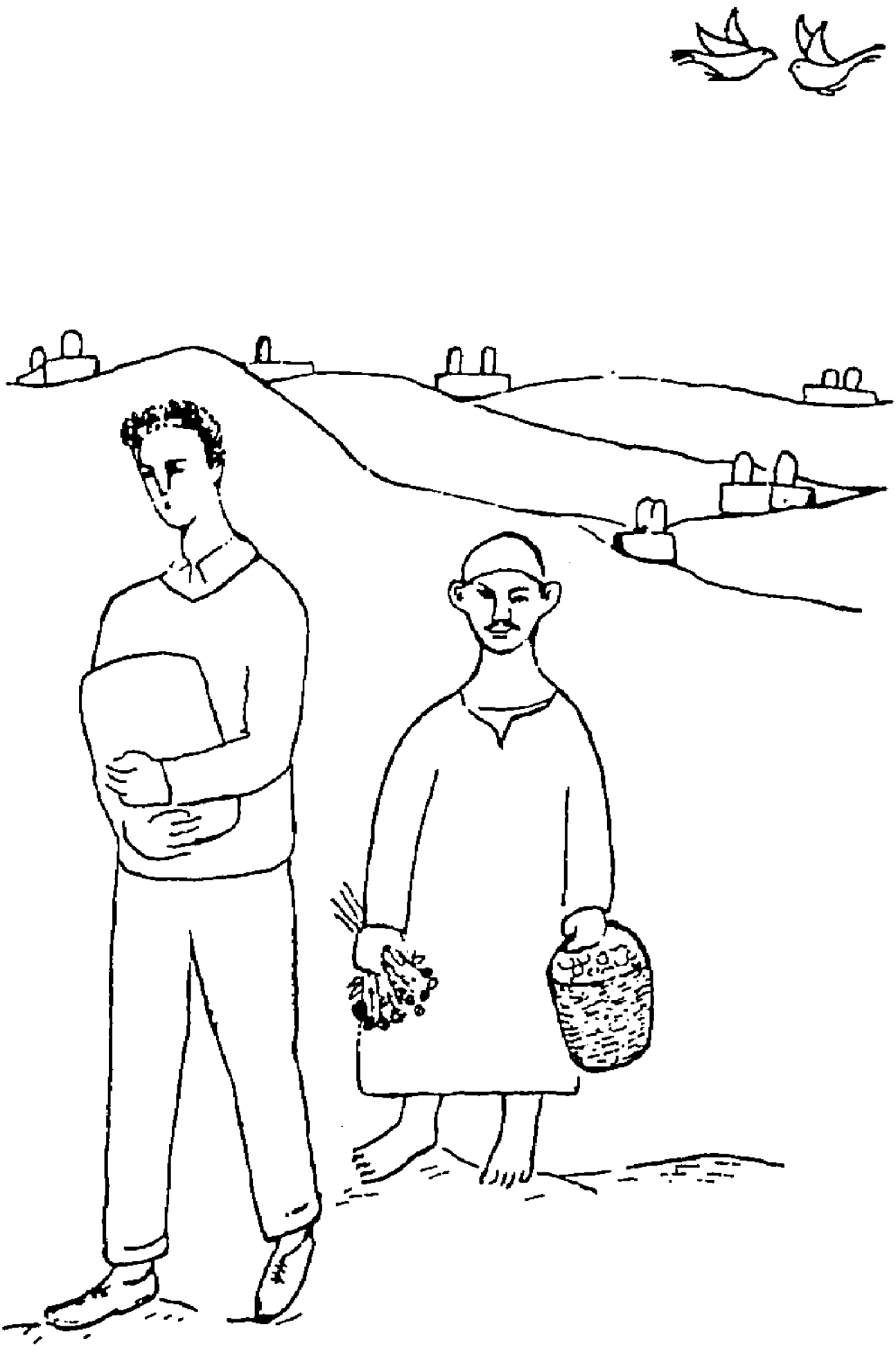

ثوراً تهادى بين القبور : له من سحنته لغد يترجرج على صدره العريض ، كلما تعثرت قدماه بفجوات الطريق ، وله من عوده بدانة مفرطة ، ومن مشيه تخطر متزن وئيد ، وله من عينيه حدقتان تدوران فى محجريهما ، فى تلصص ، وعلى شفتيه ، يتحلب ريقه كما يتسايل لعاب الثور لمرأى أعواد البرسيم النضير .

وما إن يحتوينى والرجل فناء المدفن ، حتى يحاصرنى حشد العفاة ، منبسطة سواعدهم ، يستجدون العطايا فى هرج وهياج كأنهم قطيع الذئاب الجائعة ، تحلقت على الفريسة ، تعوى عواءها الكئيب .

وسرعان ما أدفع إليهم بما جلبته من فطائر ، وفاكهة ، وتمر ، حيناً أحاسنهم ، وحيناً أخاشنهم ، لا يفوتنى أن أعمل فيهم قبضتى ، محتفظاً لقدمى فى المعركة بالنصيب الأوفر ، لأفك عنى حصار ذلك الطوق العصيب .

ولا تسأل عن الرجل الثور ، وسط هذا الهرج والمرج ، فإن تفقدته عيناك ، ألفيته منكمشاً فى ركن من الجبانة قصى ، خلص إليه من المعركة ، كما تخلص الشعرة من العجين ، وقد أطبق فكيه على فطيرة سمينة ، اختلسها فى غفلة منى ، يلتهمها هانئاً ، وبين القضمة والقضمة ، يعتصر ليمونة حلوة بين

شفتيه ، يرتشف رضابها الشهى ، يرطب به حلقه الغصان .

فإذا انفض الجمع ، انصرفت إلى قبور الراحلين الأعزاء ، أنثر عليها أعواد الريحان ، وعن كثب يتربع قارئ ضرير ، يرتل آيات الله المحكمات ، آناً يتعوج ذات اليمين وذات الشمال ، وآناً يتقاصر ويشرئب ، على إيقاع صوته الجهير ، فأجلس إليه أستمع ، مطأطئ الرأس مسبل العينين ، أتمايل فى جلستى تمايل مستمع طروب .

ولا ألبث أن أطير إلى عالم الخيال ، فيرتد بى الزمن إلى عهد خلا ، أعيش فيه أنسه وعبوسه ، وأنا ما زلت فى مكانى قاب قوسين من اللحد . . . . اللحد الذى سوف يضمنى حتماً إليه .

وكأنى أحس بالقبور تنتفض انتفاضة الحيوية ، تخلع عنها العفاء والصمت ، وتندفع فى حركة وحديث ، وكأن شريان الحياة لم ينقطع عنها ، فهى تسعى بين يدىّ سالف سعيها ، وكأن ظلام الفناء لم يغيبها عن الوعى ، طرفة عين .

يا للذاكرة من مستودع عجيب !

إن آلات الحفظ والتسجيل ، فى عصرنا الحديث ، إذا قورنت بتلك الذاكرة ، تصاغرت وعجزت أن تكون مثلها فى حفظ ما استودعت من العطب والضياع .

إن ودائع الذاكرة ، تظل خالدة فى معناها وجوهرها ، تساير الزمن وتصابره . . .

ورفعت رأسى أمسح دمعة حزن فرت من عينى .

واستقبلت العراء على غير عمد ، فألفيتنى أصافح وجوهاً جاءت إلى المقابر مثلى ، تحيى موتاها من الأعزاء الراحلين .

وتعثرت نظراتى فى تطوافها بقبر ، هين المنظر ، قائم وحده ، بين المدافن المشيدة ، لا سقف يظله ، ولا جدار يحميه ، وقد تأكلت زواياه ، وتهورت جوانبه ، وتهاوى شاهداه ، فلم يبق منه ، إلا أنقاض أحجار مثلمة ، كأنها أسنان نخرة صفر ، انفرج عنها فم محطوم .

لم يكن حول القبر سوى كلب أسود شريد ، سعى يحوم حول الجدث ، ويتشمم جداره ، وقد امتد خرطومه البليل إلى فجوات القبر يتفقدها فى هوس .

وما عتم أن اطمأن إلى إحداها ، فكف عن سعيه المحموم ، واقتعدها يقضى حاجته آمناً ، وقد تقوس ظهره ، وتقلصت عضلاته ، واشرأب رأسه يرأرئ بعينيه ، يصافح خطرات النسيم دون أن يحس زاجراً من يد قوية ، أو صوت غضوب .

وهزنى ما رأيت هزة ، زلزلت كيانى ، فقفزت أعدو ثائراً ،

أتوعد الكلب فى صوت جهورى ، وتناولت حجراً رجمته به ، فأصابه فى رأسه ، بين عينيه ، فانتصب يعدو هارباً ، يعوى عواء التوجع والغوث ، وقد أدلى أذنيه ، وضم ذيله بين فخذيه .

ومثلت أمام القبر ، ووقفت فى صمت أتملاه ، ودارت فى رأسى خواطر .

حقًّا ما أحزنه من قبر بين القبور .

أين هو من هذه الأجداث التى تزينها الورود والرياحين ، وتؤنسها بالتعهد والزيارة : الزوجة الوفية ، والذرية الصالحة .

أكذلك مصير القبور حين تفقد تعهد الأهل والأقربين ؟

يا لله ! ماذا أقول ؟

الزوجة . . . الذرية . . .

البنون . . . البنات . . .

وتراجعت عن القبر مشتت الفكرة . . . تائه النظرة . . . وقد عرتنى قشعريرة ، واستبدت بى رهبة ، وقفلت إلى الدروب المتربة ، أفسح من خطاى ، لأطلب الطريق الممدود بمنأى عن مثابة الموت والعفاء ، أكاد أصرخ : لا أريد أن أموت . . . أريد الخلود . . . الخلود . . . كل الخلود !